# الحركة العلمية في الدولة الزيانية في القرن 9هـ/15م
# في ضوء رحلة القلصادي

الأستاذ الدكتور/ بلعربي خالد
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة سيدي بلعباس – الجزائر

**Abstract :**

Cares about the file you intend to open it in this study, study scientific trips and their role in providing science and knowledge, through Ben Mohamed trip form bin Ali Al Qurashi Al Basti Abou Hassan kalsadi famous for Maghreb central middle years 840/1437. We believe that revealing mysteries that flight are subject to read the backgrounds and their dimensions from the following questions: was it a trip al kalsadi to Maghreb with a purely scientific middle or it was the result of a particular reality and circumstantial. Unfortunately for researchers, hiding historical studies provide us with knowledge that came by al kalsadi journey, it is fair that some studies on this subject but rescue intentionally or unintentionally this journey in her writing and is what we pay to choose this topic especially that expedition came lengthy are the evolution of the scientific movement of Tlemcen from al -kalsadi visited. We believe that stand on important information that came out the trip requires us to first identify these personal scientist.

**مقدمة:**

يهتم الملف الذي نزمع فتحه في هذه الدراسة، بدراسة الرحلات العلمية ودورها في تزويدنا بالعلوم والمعارف، وذلك من خلال نموذج رحلة علي بن محمد بن علي القرشي البسطي أب والحسن الشهير بالقلصادي لبلد المغرب الأوسط سنة840هـ/1437م. ونعتقد أن الكشف عن خبايا تلك الرحلة رهن بقراءة خلفياتها وأبعادها انطلاقا من التساؤلات التالية: هل كانت رحلة القلصادي إلى المغرب الأوسط ذات بعد علمي صرف، أم أنها كانت وليدة واقع معين وظرفية خاصة.

لسوء حظ الباحثين، تتكتم الدراسات التاريخية عن تزويدنا بالمعلومات المعرفية التي جاءت بها رحلة القلصادي، ومن الإنصاف أن بعض الدراسات تناولت هذا الموضوع لكن غيبت عن قصد أ ودون قصد هذه الرحلة في كتابتها وه ومادفعنا إلى اختيار هذا الموضوع خصوصا أن الرحلة المذكورة جاءت بمعلومات مستفيضة عن تطور الحركة العلمية بتلمسان في الفترة التي زارها القلصادي.

ونعتقد أن الوقوف على المعلومات الهامة التي جاءت بها الرحلة يتطلب منا أولا التعرف على هذه الشخصية العالمة.

## 1-القلصادي المولد والنشأة:

خرج الرحالة علي بن محمد بن علي القرشي البسطي أب والحسن الشهير بالقلصادي[1] من موطنه بسطة سنة 840هـ/1437م[2]، متجها إلى تلمسان للاتصال بعلمائها

والأخذ عنهم، حيث كانت تعيش أزهى عصورها العلمية في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، كما زار المدن الدولة الزيانية من بينها وهران.

اختلف الروايات في تاريخ مولده، فمنهم من قال سنة 815ه/1412م، ومنهم من قال قبل ذلك، وآخرون رجحوا ولادته بعد ذلك[3]، وكانت ولادته في بلدة قلصادة التي تقع في مدينة بسطة شمال شرق غرناطة في الأندلس، وقد أحبها القلصادي من أعماقه ووصفها بكونها مقر الألفة والأنس.

في مدينة بسطة درس القلصادي على يد الكثير من شيوخها الأجلاء، فدرس اللغة العربية وعلومها، كم قرأ الفقه والفرائض والحساب وقرأ القرآن وعلوم الحديث، وكان القلصادي خلال إقامته في بسطة كثير التردد على غرناطة ثم استوطن فيها ودرس على يد علمائها أمثال أب وعبد الله محمد السرقسطي وأب وعبد الله محمد العبدري (ت 887هـ) وإبراهيم بن فتوح (ت 867هـ) حتى أصبح أحد علمائها البازين[4].

كانت بلاد الأندلس عامة وغرناطة خاصة، تعيش أوضاعا سياسية واجتماعية مضطربة، فقد استمر الإسبان في سياستهم القمعية والوحشية ضد المسلمين بل قاموا بملاحقتهم حتى الثغور المغاربية، ومع ذلك فقد ظل النشاط العلمي بها لم تخب جذوته، وكان من نتائج هذه الظروف السيئة التي أحاطت بالجميع في غرناطة، أن رحل العديد من علمائها صوب المغرب والمشرق، وكان القلصادي أحد هؤلاء الذين يمموا وجههم صوب تلمسان عاصمة الدولة الزيانية سنة 840هـ/1437م، وبعد أن بلغ خمسة وعشرون سنة أ ويزيد أصبح أحد كبار علماء غرناطة، فقال عنه المقري في هذه الفترة بأنه "آخر من له تآليف الكثيرة من أئمة

الأندلس"[5]، وقال عنه الزركلي "إن القلصادي عالم كبير بالحساب فقيه من فقهاء المالكية وه وآخر كبار المؤلفين من أهل الأندلس"[6]

ونظرا لنبوغه العلمي وإقامته الطويلة في تلمسان خلال هذه الرحلة التي دامت ثمان سنوات يضاف إليها سبعة أشهر قضاها بها وه وفي طريق العدوة إلى الأندلس، فقد نجح القلصادي وبشكل كبير ومفيد في رسم صورة حقيقية للحركة العلمية في الدولة الزيانية خلال القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي[7].

هذا وقد درس القلصادي في تونس واستقر فيها مدة عامين (848هـ/850هـ)، وأخذ الكثير من علمائها ومنهم محمد بن عقاب، وأحمد القلشاني، وأحمد المنستير، ثم توجه نح وطرابلس الغرب ثم إلى القاهرة والتقى عددا من العلماء في الجامع الأزهر وأخذ عنهم[8]، لذلك كان القلصادي شغوفا بلقاء العلماء واستجارة المشهود لهم، فكان كتابه المسمى برحلة القلصادي مفيدا جدا في كونه مصدرا وافرا بتراجم كثيرة من العلماء، وموردا عذبا لمؤلفي التراجم وذلك يبوئه مستوى ممتازا بين مصادر عصره[9].

وعلى ذلك كان كتاب رحلة القلصادي يدل على مدى الازدهار أ والانحطاط الثقافي في الدولة الزيانية[10]، في ضوء ظروفها السيئة الناتجة عن محاولات الحفصيين فرض هيمنتهم على بلاد المغرب الأوسط، ثم عدم الاستقرار الذي كان يطبع الدولة الزيانية فقد كان يحكمها خلال هذه الفترة التي زار فيها القلصادي تلمسان، أب والعباس أحمد العاقل بن أبي حم والزياني (834 – 866هـ / 1431 – 1462م) الذي تعرض إلى محاولات انقلابية وثورات قام بها منافسوه من البيت الزياني فقد خرج عليه أخوه أبويحيى بن أبي حم والزياني سنة

838هـ/1436م وانفرد بحكم وهران سنة 852هـ/1450م[11]، وثار عليه في سنة 841هـ/1439م أب وزيان محمد المستعين بالله ابن أبي ثابت بالناحية الشرقية للدولة فاحتل بلاد حمزة والجزائر وبلاد مليكش وأرض الثعالبة[12]، واستولى ابنه أب وعبد الله المتوكل على سهل متيجة والمدية ومليانة وتنس[13].

ولكن بعد الاطلاع على رحلة القلصادي وكتب التراجم التي تناولت تراجم علماء الدولة الزيانية، نستطيع أن نؤكد أن الحركة العلمية خصوصا في تلمسان لم تتأثر تأثرا كبيرا بعدم الاستقرار السياسي للدولة الزيانية خلال هذه الفترة ذلك أن السلطان الزياني أب والعباس أحمد العاقل المعاصر لرحلة القلصادي قد اهتم بالعلم والثقافة، فكثر الإقبال على طلب العلم والرحلة في عهده، فهو الذي بنى مدرسة جديدة بزاوية الشيخ صالح بن مخلوف ابركان[14]، وعلى الرغم من أن القلصادي لم يتعرض إلى موقف أب والعباس العاقل من العلم والثقافة فإن المصادر التاريخية المتاحة توضح هذا الموقف، فقد سار أب والعباس أحمد العاقل على نفس السياسة التي اتبعها مؤسس الدولة يغمراسن بن زيان الذي كان مهتما بالعلم ومشجعا له[15]، كان السلطان أب والعباس أحمد العاقل يجالس العلماء، وأهل الفضل والصلاح، ويشجعهم على التصنيف يجزل لهم العطايا، ويحضر دروسهم ومحاضرتهم ويزورهم بمنازلهم ويمشي وراء جنائزهم[16]، كما كان معظم الفقهاء والصالحين ويبرهم، فقد "كانت له عناية عظيمة بالولي الزاهد، القطب الغوث، شيخ الزهاد، وقدوة العباد، السيد أب وعلي الحسن بن مخلوف فكان يكثر من زيارته ويقتبس من إشارته، ومدار أكثر أموره عليه، وبنى بزاويته المدرسة الجديدة وأوقف عليها أوقافا جليلة، ووجد كثيرا من ربع الأحباس قد دثر، والوظائف بها انقطعت فأحيى رسمها، وجرد ما دثر، وأجرى الوظائف على أزيد مما كانت عليه من قبل..."[17]، هذا

وقرب أب والعباس أحمد العاقل إليه الفقهاء والعلماء واستعان بهم في إدارة أمور الدولة، وهذا يدل كله على ازدهار الحركة العلمية في الدولة الزيانية يؤكد ذلك ما قاله القلصادي حين دخل تلمسان:" وأدركت فيها كثيرا من العلماء والصلحاء والعباد والزهاد، وسوق العلم حينئذ نافقة، وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة، والهمم إلى تحصيله مشرفة، وإلى الجد والاجتهاد فيه مرتقية، فأخذت فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان، المشهود لهم بالفصاحة والبيان"[18]، إذ أنه لا يمكن تخيل ازدهار الحركة العلمية دون مساندة وتشجيع الدولة، من الطبيعي هذه الحركة العلمية تبعت من مصادر عديدة عبرت عنها رحلة القلصادي.

## 2–مصادر الثقافة في الدولة الزيانية.

تبرز رحلة القلصادي المصادر التي أسهمت في ازدهار الحركة العلمية في الدولة الزيانية خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، فبالإضافة إلى المصادر المحلية، وجد منهلان، نهلت منها الحركة العلمية الزيانية، وهما الأندلس والمشرق، واللّذان كان تأثيرهما واضحا في مدينة تلمسان دون غيرها من مدن الزيانية التي لم تحظ بازدهار علمي واضح، كما كان الحال في مدينة تلمسان.

أما المنهل الأول فه وبلاد الأندلس التي توافد منها الكثير من العلماء والأدباء نتيجة لسقوط بلدان العدوة الأندلسية الواحدة تلوى الأخرى[19]، أملا في الاستقرار والاطمئنان وطمعا في طيب الإقامة وتوفير الرزق، والعمل في كنف الدولة الزيانية التي كانت في حاجة إلى تلك الشخصيات فشجعتهم على الهجرة[20]، كما أن موقع الجغرافي لتلمسان جعل منها أرض

الهجرة قريبة للغاية بالنسبة إلى المسلمين الفارين من الأندلس وبدخول الأندلسيين إلى تلمسان أصبحت وارثة للعلوم الأندلسية إلى جانب بالمغرب الأقصى وتونس[21].

وحين قام القلصادي برحلته ووصل إلى بلاد الدولة الزيانية التقى بالعديد من الأندلسيين الذين درسوا علوم الدين وعلوم اللغة العربية.

أما المنهل الثاني وهو المشرق الإسلامي، فالجدير بالملاحظة أن وصول العلوم والمعارف من المشرق لم يكن راجعا إلى المشارقة أنفسهم إذ أنهم لم يزوروا تلمسان بأنفسهم خلافا للجموع الغفيرة الوافدة من الأندلس، ولكن المشرق الذي ظل يتمتع بنفوذ كبير في نظر المسلمين كان ينشر علومه بواسطة التلمسانيين والأندلسيين العائدين منه[22].

وكذلك فإن العلوم المشرقية وفدت إلى الدولة الزيانية عن طريق بعض التلمسانيين الذين رحلوا إلى بلاد المشرق طلبا للعلم منهم أب وعبد الله محمد بن مرزوق الحفيد (ت842هـ/1438م)[23]، ومحمد ابن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن الإمام التلمساني (ت845هـ/1441م)[24].

والتقت الثقافتان الوافدتان من الأندلس والمشرق مع الثقافة المحلية التي كان يمثلها العلماء التلمسانيون، مما أدى إلى ازدهار الحركة العلمية في الدولة الزيانية، فقد التقى القلصادي بعدد من الفقهاء وعلماء الدين في تلمسان منهم الشيخ الجليل أب وعبد الله محمد بن مرزوق الحفيد الذي كان عالما جل قدره في الجلة الفضلاء (ت842هـ/1438م)[25].

والتقى القلصادي كذلك بالشيخ الصالح الفقيه أبي مهدي عيسى الرتيمي الذي كان له مقصد في حسن التعليم[26]، كما اجتمع القلصادي بالشيخ الفقيه الإمام سيدي أب وعبد الله محمد الشريف (844هـ/1443م)[27]، والتقى كذلك بـأبي حجاج يوسف بن إسماعيل الشهير بالزيدوري (ت845هـ/1441م) الذي كانت له مشاركة في علوم الرياضيات[28]، وكذلك التقى بالفقيه أب وعبد الله محمد بن النجار (ت846هـ/1442م) وكان عالما في العلوم النقلية والعقلية[29].

والتقى القلصادي بوهران المدينة الثانية بعد تلمسان أب والربيع سليمان الحميدي الذي كان من أهل الفضل والعلم بوهران[30]، والتقى كذلك بإبراهيم بن محمد بن علي اللنتي التازي الولي الصالح[31].

**3- الحركة العلمية العامة في مدن الدولة الزيانية كما سجلها القلصادي:**

يتبين لنا مما أشرنا إليه عن التقاء القلصادي بهؤلاء العلماء سواء كانوا محليين أ ووافدين من الأندلس أ وعائدين من المشرق أن بعض مدن الدولة الزيانية خاصة تلمسان كانت مركزا من مراكز العلم والثقافة رسم لها القلصادي صورة صادقة تؤكدها كتب التراجم والطبقات ويمكن تقسيم هذه المدن من حيث الرقي الحالة العلمية أ وتدنيها وانخفاض مستواها إلى مجموعين.

المجموعة الأولى: وتتمثل في مدينة تلمسان حاضرة الدولة الزيانية وقد أثنى القلصادي على ما وصلت إليه هذه المدينة من رقي وازدهار، فقد تعددت بها العلوم والمعارف وازدانت

بالعلماء والأدباء، ولذلك يقول مفاخرا بها: " وسوق العلم بها حينئذ نافقة، وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة "[32].

وتتمثل المجموعة الثانية في مدينة وهران حيث أشار القلصادي إليها وإلى الأحباب والإخوان الذين التقى بهم هناك من العلماء على الرغم من عددهم القليل[33].

## 4- الرحلة وأماكن التعليم:

أبرز القلصادي في رحلته أمكنة التعليم في الدولة الزيانية وهي المساجد والمدارس، أما المساجد فقد كانت في الدولة الزيانية كسائر مساجد بلدان العالم الإسلامي على رأس معاهد العلم والثقافة، وأدت رسالتها على أتم وجه ومن هذه المساجد التي ذكرها مسجد الخراطين، والمسجد الأعظم، ومسجد سيدي الحلوي[34] وغير أنه لم يذكر مساجد أخرى في تلمسان كان لها دور في النهضة العلمية منها مسجد أبي الحسن بالقرب من المسجد الأعظم،والذي قام بتأسيسه أب وسعيد عثمان بن يغمراسن سنة 696هـ/1296م[35]، ومسجد أولاد الإمام الذي أنشأه السلطان أب وحم وموسى الأول سنة 710هـ/1310م[36]، ومسجد إبراهيم المصمودي الذي قلم بتأسيسه أب وحم وموسى الثاني[37]، ومسجد أبي مدين الذي أمر ببنائه السلطان أب والحسن المريني سنة 739هـ/1339م[38].

أما فيا يخص المدارس الزيانية التي ذكرها القلصادي فلم يقدم سوى إشارة واحدة عن وجود المدرسة اليعقوبية التي قام بتأسيسها السلطان أب وحم وموسى الثاني تخليدا لوالده أبي يعقوب حاكم إقليم الجزائر الذي أدركته الوفاة سنة 736هـ/1362م[39] ومما يدع وللدهشة أن القلصادي قد أغفل ذكر مدارس الأخرى كان لها دور بارز في الحركة العلمية بتلمسان

وهي مدرسة ابنا الإمام التي أمر بنائها السلطان أب وحم والأول[40]، والمدرسة التاشفينية التي شيدها أبوتاشفين بن أبي حم وموسى الأول[41]، ومدرسة أبي مدين بالعباد التي شيّدها أب والحسن المريني[42] ومدرسة سيدي الحلوي التي بناها السلطان أبي عنان المريني وقت استيلائه على تلمسان والمغرب الأوسط سنة 754هـ/1454م[43].

وقامت المدارس الزيانية بتدريس كتب الأصول، أصول الدين وأصول الفقه بالإضافة إلى كتب الفقه المالكي " علم الفروع "[44].

وهكذا كان ظهور المدارس الزيانية بالإضافة إلى المساجد أثر كبير في ازدهار الحركة العلمية في تلمسان حاضرة بني زيان التي زارها القلصادي.

## 5- الكتب التي درست في أمكنة التعليم:

قرأ القلصادي العديد من المؤلفات العلمية على يد من درس عليهم من الشيوخ العلماء خلال إقامته في تلمسان، وتلقى هذه المؤلفات الضوء على الكتب التي شاعت دراستها في أمكنة التعليم المتعددة.

### أ- العلوم الدينية:

تميز العهد الزياني كغيره من العهود السابقة بتأثير الدين على الحياة الفكرية، إذ كان ه والسائد على العقول الناس.

### * علم القرآن والتفسير:

اهتم المسلمون بهذا العلم بقراءة القرآن وتجويده وتفسيره لأنه المصدر الأول لتشريعهم، وتفيد الرحلة أن تآليف " مقدمة في التفسير " و" تفسير الفاتحة " و" التذليل في ختم

التفسير " كانت من بين الكتب التي درسها في علم القرآن والتفسير على يد أب والعباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمان المغراوي الخزري الشهير بابن زاغو[45].

*** علم الحديث:**

اطلع القلصادي في رحلته على العديد من كتب الصحاح التي تتناول أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وهي أصول من التشريع الإسلامي منها كتاب صحيح البخاري[46]، وكتاب صحيح مسلم، وقرأ كتاب ابن الصلاح في علم الحديث على يد بن مرزوق العجيسي[47].

*** كتب الفقه:**

من بين كتب الفقه التي قرأها القلصادي في تلمسان " شرح كتاب لإبن الحاجب في الفروع المسمى بـــ " إزالة الحاجب لفروع ابن الحاجب[48] وبالإضافة إلى هذا الكتاب فقد قرأ كتاب " شرح مختصر خليل "[49]، واطلع أيضا على كتاب " مختصر المدونة لابن أبي زيد "[50].

**ب/ كتب اللغة العربية التي قرأها القلصادي أثناء إقامته بتلمسان الزيانية:**

*** النحو واللغة:**

قرأ القلصادي كتاب " شرح الجمل " للشيخ الأستاذ النحوي أبي اسحاق الزجاجي (ت339هـــ)، واطلع على كتاب، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد للشيخ جمال الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن مالك الطائي الجياني (ت672هـــ)، وقد اعتنى القلصادي بقراءته كبقية علماء عصره نظرا لشموله لجميع قواعد النحو، وقرأ القلصادي الألفية لابن مالك والكافية لابن الحاجب[51].

*** النقول الشعرية:**

ومما تمتاز به رحلة القلصادي أنها تحتوي على نقول شعرية كثيرة من إنتاج الأدباء والعلماء الذين التقى بهم، أ وممن أنشدوه إياه وقد أثبت القلصادي هذه النقول بعد أن قرأها.

ومن الأبيات الشعرية التي أوردها القلصادي في رحلته، بيت شعري للشاعر الصمة بن عبد الله القثيري، يقول فيه:

تمتع من شميم عرار نجد     فما بعد العشية من عرار[52]

كما أورد أبيات شعرية قرأها عليه العالم الشيخ سيدي أب والعباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن المغراوي الخزري الشهير بإبن زاغو:

رأيت الانقباض من أجل شيء  *  وأدعى في الأمور إلى السلامة[53]

فهذا الخلق سامحهم ودعهم  *  فخلطتهم تــقود إلى الندامة

ولا تعني بشيء غير شيء  *  يقود إلى خلاصك في القيامة

*** كتب في الرياضيات:**

من بين كتب الرياضيات التي قرأها القلصادي نذكر " رفع الحجاب عن تلخيص أعمال الحساب "، وبعض الأصول والمقدمات في الجبر والمقابلة، لابن البناء (ت721هــ)، وقرأ أيضا كتاب الحوفي في الفرائض للشيخ سعيد بن محمد العقباني التلمساني (ت811هــ)[54].

## 6- الإجازات العلمية:

حصل القلصادي من خلال لقائه بالعلماء الذين درس عليهم على العديد من الإجازات العلمية التي كان يحرص عليها العالم لضمان انتشار علمه سليما صحيحا خاليا من التحريف والخطأ بقدر الإمكان، ويحرص عليها أيضا المتعلم لينال علما مضبوطا لاشك في نسبته إلى صاحبه، وليثبت انتماءه إلى عالم موثوق فيه، ومن ثم كانت الإجازات عملا شخصيا بحثا من اختصاص الأستاذ وحده ولا صلة له بالمؤسسات التعلمية[55].

وتمنح الإجازات بعد قراءة العلم أو سماعه على يد شيخ أو عالم أو فقيه أو أديب، ويدون في الأجازة كل ما سمعه الطالب من العالم وكان يكتبها الأخير بخط يده وتفيد سماع الطالب العلم في الكتب التي سمعها أو قرأها وتفهمه لها حتى تصح له الرواية، فقد أجاز أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي (الحفيذ) القلصادي بعد أن قرأ عليه كتابه في الفرائض وأواخر الإيضاح للفارسي وصحيح البخاري، وشرح التسهيل لابن مالك، والمنهاج للغزالي[56].

وتتيح الإجازة التي يحصل عليها الدارس من شيخه ممارسة مهنة التدريس ويحصل على لقب الأستاذية التي تجعله في مصاف العلماء والفقهاء والأدباء، له مكانته في المشيخة العلمية.

### 7- المكتبات في الدولة الزيانية:

تلقي الكتب التي قرأها القلصادي خلال لقائه مع العلماء الذين التقى بهم أثناء إقامته في تلمسان، الضوء على وجود المكتبات الخاصة لدى هؤلاء العلماء، فقد كانت سوق الكتب رائجة، وعلى رغم من أن القلصادي لم يشر إلى المكتبات التي زارها فإن تردده على الجامع الأعظم والمدرسة اليعقوبية، قد جعله يطلع على محتوياتهما من أمهات الكتب التي كانت موجودة بهما، حيث كانت مكتبة الجامع الأعظم التي أنشأها السلطان أبو حمو موسى الثاني سنة 760هـ/1359م تضم العديد من أمهات الكتب في كل العلوم، كما كانت المدرسة اليعقوبية التي أسسها السلطان أبو حمو موسى الثاني تحتوي هي الأخرى على نفائس الكتب[57]، وبالإضافة إلى جامع الأعظم والمدرسة اليعقوبية، انتشرت المكتبات في أنحاء أخرى من الدولة وقامت بدور هام في نشر العلوم والمعارف لدى جمهور كبير من الطلاب والعلماء[58].

أسس السلطان أبو زيان محمد بن أبي موسى سنة 796هـ/1394م خزانة الكتب بالقسم الأمامي من الجامع الأعظم وقد عمرها بمختلف الكتب ومن هذه الكتب ما استنسخه بيده، كالقرآن الكريم، وصحيح البخاري، وكتاب الشفا للقاضي عياض، لم يشر إليه القلصادي كذلك في رحلته.

وهكذا وجه سلاطين الدولة الزيانية عنايتهم لجمع الكتب وفتحوا أبواب خزانتها الثمينة للخاصة والعامة وجمعوا عددا وافرا من المخطوطات في شتى الموضوعات وخصصوا لها جناحا منفردا كان يقصدها الباحثون والطلاب من كل حدب وصوب.

## 8- المذهب المالكي:

تميز بنو زيان عن الموحدين بسياسة مذهبية أظهروا فيها مرونة كبيرة تجاه الفقهاء المالكية وعلم الفروع، وكان لهذا الموقف الرسمي أثره البالغ في نهضة الفقه المالكي بتلمسان، وعاد مذهب مالك رسميا إلى المغرب الأوسط وتلمسان في النصف الثاني من القرن 7هـ/13م[59].

في ضوء الرحلة القلصادي يتضح جليا أن حكام الدولة الزيانية مالوا إلى المذهب المالكي وأبدوا اهتمامهم برعاية أهل السنة، وهذا الموقف الذي اتخذه هؤلاء الحكام يرجع لتعلق أغلب رعايا الدولة الزيانية بالمذهب المالكي الذي لم تستطع السياسة الدينية الموحدية القضاء عليه[60]، إذ تسجل مشاهدات القلصادي على أن الكتب الفقهية التي كانت معتمدة في التدريس بتلمسان الزيانية مختصر المدونة لابن أبي زيد القيرواني (ولد سنة 316هـ) وكتاب ابن الحاجب في الفروع، لابن الحاجب عثمان بن أبي بكر (ت646هـ)، وكتاب مختصر خليل، لخليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب (ت767هـ)[61].

و لم يكتف الزيانيون بإفساح المجال لهذا التطور، بل نشأ بينهم وبين الفقهاء المالكيين تعاون حقيقي، لدرجة أن هؤلاء الفقهاء سيطروا على كافة المؤسسات الدينية الرسمية وتولوا مناصب الفتيا والقضاء، فتولى أبو الحسن علي بن اللجام، والفقيه أبو عبد الله محمد المدكالي والفقيه أبو عبد الله بن مروان، والفقيه أبو الحسن علي والفقيه أبو مهدي عيسى بن عبد العزيز والفقيه إبراهيم بن علي بن يحيى القضاء في حاضرة بني زيان في عهد السلطان يغمراسن بن زيان (633 – 681هـ)[62].

كما تولى أبو عبد الله بن منصور بن علي بن هدية القرشي (ت735هـ) منصب القضاء في تلمسان[63]، وتمدنا المصادر التاريخية الأخرى بأسماء العديد من الفقهاء المالكيين الذي شغلوا مناصب دينية في الدولة الزيانية مثل أبي عثمان سعيد بن محمد العقباني (ولد بتلمسان سنة 720هـ) الذي تولى قضاء وهران وهنين وتلمسان ما ينيف عن أربعين سنة[64]، وكذلك قاسم بن سعيد العقباني (ت854) الذي تولى منصب قاضي الجماعة بتلمسان على غرار أبيه[65].

وهكذا عاد المذهب المالكي إلى سابق مكانته، وكان ذلك إيذانا بنهاية للدعوة الموحدية في بلاد المغرب الأوسط.

يمكننا بعد هذه دراسة عن الحركة العلمية في الدولة الزيانية في ضوء رحلة القلصادي أن نخلص إلى النتائج التالية.

أولا: شغف القلصادي بلقاء العلماء، ولذلك رحل إلى الحجاز بهدف أداء فريضة الحج والاتصال بالعلماء في المراكز الثقافية التي مر بها.

ثانيا: أن القلصادي قد أهمل ذكره في كتب التراجم والطبقات ولم يخصه مؤلف بترجمة وافية لكن يمكن الحكم على ثقافته بالتنوع والعمق ويتبين ذلك من اهتماماته العديدة التي ظهرت من خلال هذه الدراسة والكتب التي ألفها وهي كثيرة.

ثالثا: أسهمت الثقافتان الوافدتان من الأندلس والمشرق بالإضافة إلى الثقافة المحلية في نم وورقي الثقافة في البلاد المغرب الأوسط في عهد الدولة الزيانية.

رابعا: من خلال رحلة القلصادي أمكن تحديد أمكنة التعليم المختلفة التي انتشرت في ذلك العصر وساعدت في نشر العلوم والمعارف بالدولة الزيانية.

خامسا: تلقى الرحلة الضوء على الكتب والشروح والقصائد والمختصرات التي شاعت دراستها في الدولة الزيانية، ويؤكد ذكر القلصادي لها على إلمامه بثقافة عصره واطلاعه على المصادر المعروفة في وقته.

سادسا: في ضوء رحلة القلصادي نجد أن المذهب المالكي قد عاد إلى احتلال مكانته في عهد الدولة الزيانية وصارت كتب الفقه المالكي من كتب التعليم، كما شغل فقهاء المالكية المناصب الدينية وكان ذلك إيذانا بنهاية الدعوة الموحدية.

سابعا: تمتاز الرحلة بالأسلوب العلمي، فهناك أمانة لدى القلصادي في النقل والرواية، كما تمتاز الرحلة بسهولة الأسلوب ووضوح التعبير.

ثامنا: وأخيرا بالرغم من أمانته وجديته في البحث عن الحركة العلمية في الدولة الزيانية، فقد تغافل عن ذكر المدارس التي كانت موجودة بتلمسان ما عدا المدرسة اليعقوبية، كما لم يشر إلى المكتبات التي كانت موجودة.

من هذه النتائج يتبيّن لنا أن القلصادي قد نجح في رسم صورة حقيقية لما وصلت إليه العلوم والمعارف في عهد الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط مما يدل على أهمية هذه الرحلة كمصدر لدراسة الحركة العلمية في الدولة الزيانية في القرن 9هـ/15م.

## الاحالات

1- اعتمدت في هذه الدراسة على كتاب تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب المسماة برحلة القلصادي، دراسة وتحقيق محمد أب والأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1978م.

2- عمر رضا كحالة، تراجم مصنيفي الكتب العربية ج7، مطبعة التركي دمشق 1959، ص 230.

3- محمد بن عبد الرحمان السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت (ب ت)ج5، ص 14، خير الدين الزركلي، الأعلام ج5،ط3، بيروت 1970، ص 163.

4- أب والعباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أب والنور، المكتبة العتيقة، دار التراث القاهرة 1973 ج3، ص 251، ينظر كذلك السخاوي، المصدر السابق ج5 ص ص 14 – 15.

5- المقري شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس إلى الطيب ج3، تحقيق الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر بيروت 1986 ص 144.

6- الزركلي، المصدر السابق، ج5، ص 163.

7- محمد علي داهش، أب والحسن علي بن محمد القلصادي الأندلسي، حياته ومؤلفاته (815 – 891هـ/1412 – 1486) مجلة الوفد، العدد 186 ربيع الأول 1434هـ فبراير 2013، دائرة الإعلام والثقافة، الشارقة، ص 93.

8- القلصادي، المصدر السابق، ص 132.

9- عمر فروخ، عبقرية العرب في العلم والفلسفة، منشورات المكتبة العصرية، بيروت 1969، ص ص 69 – 70.

10- قامت الدولة الزيانية (633 – 962هـ/1235 – 1554م) عندما تصدعت الدولة الموحدية بالمغرب وانقسمت البلاد إلى ثلاث دول هي الدولة الحفصية، والدولة الزيانية والدولة المرينية، وتنتسب الدولة الزيانية موضوع البحث إلى قبيلة بني عبد الواد إحدى بطون زناتة، ومؤسس الدولة يغمراسن بني زيان (633 – 681هـ/1235 – 1284م) الذي بذل كل ما في وسعه من أجل الاستقلال بالدولة وكتب اسمه على السكة، واتسعت حدود دولته حتى صارت تلمسان في عهده حاضرة من الحواضر العالمية، ولكن الأحوال السياسية للدولة الزيانية ما لبثت أن ساءت عندما مر بها القلصادي، ينظر.

- ابن الأعرج محمد الحسني السلماني، زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ، الخزانة الحسنية الرباط رقم 297، ورقة 3.

- يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ج1 تحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية الجزائر 1980، ص 84 وما بعدها.

- التنسي محمد عبد الله، نظم الدر والعقبان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985، ص 113.

11- نفسه، ص 249.

12- نفسه، ص 250.

13- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني ج1، دار موفم للنشر والتوزيع، الجزائر 2002، ص 72.

14- نفسه، ص 72.

15- بلعربي خالد، الدولة الزيانية في عهد السلطان يغمراسن بن زيان، دراسة تاريخية وحضارية، دار الألمعية للنشر والتوزيع، الجزائر 2011، ص 311.

16- ابن الأعرج، زبدة التاريخ، ورقة 76.

17- التنسي، المصدر السابق، ص ص 258 – 259.

18- القلصادي، المصدر السابق، ص 95.

19- محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، القاهرة ط2، 1949 ص ص 468 – 469.

20- شجع الكثير من سلاطين بني زيان هجرة الأندلسيين للاستقرار في كنف الدولة الزيانية ومن بينهم السلطان يغمراسن بن زيان الذي أصدر في شأنهم ظهيرا يؤكد على العناية الكاملة بهم وحفظهم في السكن والتملك للأراضي الزراعية، كما أن السلطان أب والعباس، أحمد العاقل استقبلهم بحفاوة ووجههم حسب طبقاتهم وحرفهم، فالعلماء والوجهاء وسراة القوم أنزلهم عاصمة مدينة تلمسان وأنزل معهم التجار والحرفيين وأصحاب رؤوس الأموال في درب خاص بهم، عرف بدرب الأندلسيين، ينظر، أب وبكر بن خطاب، فصل الخطاب في نثر أبي بكر بن خطاب، مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 4605 ورقة 39 – 40، ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشره محمد بن أبي شنب، وقدم له عبد الرحمن طالب، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1986، ص 127.

21- عبد الحميد حاجيات، تلمسان مركز الإشعاع الثقافي في المغرب الأوسط، مجلة الحضارة الإسلامية، عدد خاص بالملتقى الدولي حول المراكز الثقافية في المغرب الإسلامي، وهران 1993، ص ص 37 – 38.

22- عبد العزيز سالم، تاريخ وحضارة الإسلام، في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية 1985، ص ص 249 – 250، التنسي، المصدر السابق، ص 127، عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج2، ص 327.

23- ابن مريم، المصدر السابق، ص 206.

24- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج2، ص 319.

25- عبد الحميد حاجيات، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، مجلة الأصالة، العدد 26 جويلية – أوت 1975، مطبعة البعث، قسنطينة الجزائر، ص 143.

26- القلصادي، المصدر السابق، ص 98.

27- نفسه، ص 99.

28- نفسه، ص 100.

29- نفسه، ص 102.

30- نفسه، ص 112.

31- نفسه، ص 111.

32- نفسه، ص 95.

33- نفسه، ص 111.

34- نفسه، ص 99 وما بعدها.

35- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج1، ص146.

36- نفسه، ص 147.

37- نفسه، ص 147.

38- نفسه، ص 147.

39- القلصادي، المرجع السابق، ص 104.

40- التنسي، المرجع السابق، ص 149.

41- نفسه، ص 151.

42- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق ج1، ص 143.

43- نفسه ج1، ص 144.

-44SOURDEL (D), réflexions sur la diffusion de la madrasa on orient du 11ème et 12ème siècle, in l'enseignent en islam et en orient au moyen-âge, colloque international de la Napoule, Paris 1977.p.165 – 184.

45- القلصادي، المصدر السابق، ص 103.

46- نفسه، ص 97.

47- نفسه، ص 97.

48- نفسه، ص 104.

49- نفسه، ص 104.

50- نفسه، ص 107.

51- نفسه، ص 97.

52- نفسه، ص 105.

53- نفسه، ص 104.

54- نفسه، ص 101.

55- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق ج2، ص 471.

56- القلصادي، المصدر السابق، ص 96.

57- عبد الحميد حاجيات أب وحم وموسى الزياني وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 183.

58- وجدت مكتبات أخرى بمدن المغرب الأوسط في العهد الزياني نذكر منها على سبيل المثال لاالحصر مكتبة بزاوية إبراهيم التازي بوهران التي كانت تحتوي على الكثير من الكتب من العلمية، ينظر:

- شاوش رمضان، باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995، ص 107 – 400.

59- كريب عبد الرحمن، المدرسة المالكية بتلمسان الزيانية، رسالة ماجيستير التاريخ الوسيط (مرقونة) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس 2010 – 2011، ص 54.

60- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج2، ص 380.

61- القلصادي، المصدر السابق، ص 97 وما بعدها.

62- يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 255.

63- نفسه، ص 215.

64- نبيلة عبد الشكور، أسرة العقباني ومكانتهم في القضاء بالمغرب الأوسط، بحث منشور ضمن أعمال التاريخ والقانون، التقاطعات المعرفية والاهتمامات المشتركة أعمال مهداة للدكتور محمود إسماعيل أيام 3 – 4 – 5 نوفمبر 2009، سلسلة ندوات (22) السنة 2009 مطبعة برانت شوب، مكناس، المغرب، ص 224

65- نفسه، ص 226.